الآثار المطوية (١)

جمعها وعلق عليها ونشرها
الاب انطونيوس شبلي اللبناني
رئيس الطوش جبيل

بين الشيخ ناصيف اليازجي ونصر الله الطرابلسي الحلبي

كان الشيخ ناصيف اليازجي رجلاً عالماً شاعراً، كريم الاخلاق، محمود الصفات، موفور المهابة، رصيناً رزيناً، أبياً وفياً لاصدقائه ومعارفه، متواضعاً خفيض الجانب لين الطباع. قد طارت شهرة علمه وفضله في الاقطار الشرقية والغربية، وراسله الادباء والشعراء من كل طبقة ومذهب، وافرغوا عليه حلل المدح والثناء، فكان يجيبهم على مراسلاتهم نثراً بنثر وشعراً بشعر. وكثيراً ما كانت تختلج في صدره عاطفة طيبة رقيقة نحو اصدقائه الذين حالت بينه وبينهم شقة البعاد، فيشتاقهم ويحن اليهم ويحدب عليهم، ويئن لبعادهم ويذكر عهد ودادهم فيهيجه الشوق الى لقائهم، فلا يستطيع اذ ذاك ضبط مشاعره، فيهب القلم الى الدواة والقرطاس متهادياً بين أنامله، ينثر ما انطوى في قرارة نفسه من لاعج الوجد، وينفح بما احتوى من كلم الثناء والحمد، دليلاً على صدق وعوده وعهوده. تلك عاطفة وفاء واخلاص كانت متجسمة في قلب هذا الشيخ الكبير.

وقد عثرنا له على رسالة خطية من نثر وشعر لم تطبع في كتاب مراسلاته[1]، أنفذها الى صديقه الاديب الشاعر نصر الله الطرابلسي الحلبي[2] جواباً على رسالته اليه.

---

١) «ناكهة الندماء» في مراسلة الأدباء». للشيخ ناصيف اليازجي، طبعت بنفقة المكتبة المصرية لمؤسسها زيدان، في ٩٢ صفحة.

٢) عليك بما كتبته عنه الاب لويس شيخو في (المشرق ٣ [١٩٠٠]: ٢٩٧ – ٤٠٩) وقسطاكي بك الحمصي في (مجلة الشطة الحلبية لصاحبها فتح الله قسطون، في سنتها الثانية، العدد الاول، آب سنة ١٩٢١، ص ٥٨)

في خزانة كتب دير الشير تكين (سوق الغرب) المحتوية نفائس المخطوطات والمطبوعات ، كتاب خطي تحت رقم ١٣٣ عدد ١٦ ، مخروم من اوله وآخره ، شبيه « بجراب الكردي » الجامع لكل شيء ، يقع في ٥١٨ صفحة ، منسوخ بخط عربي غير جيد على ورق عبادي مائل الى الرقة ، وبالحبر الاسود . اما عناوينه فبالحبر الاحمر ، مجلد بجلد اسود قديم ، سقطت من آخره بعض ورقات فضاع معها اسم ناسخه . طول هذا المخطوط ٢١ سنتمترًا ، وعرضه ١٤ سنتمترًا ، وعرض هامشه سنتمتران . يبتدئ هذا المخطوط بخالية المعلم بطرس كرامه ، وجواب احد المسلمين عليها بقصيدة[1] . ثم قصيدة لكرامه ، مطلعها :

للمرء في حادثات الدهر آمال وللنوائب إقدامٌ وإجفالُ

الى صفحة ١٣ ثم يأتي كتاب « الراهب المشتاق » وهو ناقص من آخره ، ترجمة القس يوسف بن جرجس الباني الحلبي ، الى ص١٠٦ ، فالمقالة الاولى الدُرّيّة في عيد الافخارستيا من ص١٠٨ الى ١١٩ ، فكُتيب في انهدام الديانة البرانية ، ينتهي في صفحة ١٤٤ ، فنبذة في تاريخ طائفة الروم الكاثوليكية الملكية وذكر الحوادث التي جرت بينها وبين طائفة الروم الارثوذكسية ، من اوائل شير آب سنة ١٨٣٧ ، الى ص ٢٨٦[2] ، فاشعار مما يلزم الانسان في بعض الاوقات لصروف الازمان ، فقصائد للشيخ عمر الفارضي منها تخميس خمريته :

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرمُ

فأبيات في النساء صفحة ٣٠٧ . قال الشاعر :

لسن تأتوني بالنساء فإنني عليمٌ بأدواء النسا وطبيبُ
اذا شاب رأسُ المرء أو قلّ مالهُ فليس له في ودهنّ نصيبُ

وقال غيره :

إنّ النساء وإن عُرفنَ بعفّة جيفٌ تدبّ بها الذبابُ الخُوّمُ
اليوم عندك مرأها وحديثها وغدًا لغيرك كفّها والمعصم

---

١) طالعها في « قطرة طوامير » للكونت الشيخ رُشَيِّد الدحداح . طبعة باريس سنة ١٨٨٠ ، في ٩٤ صفحة ، بقطع كبير .

٢) قد نشرها الخوري قسطنطين الباشا المخلّصي تحت عنوان « نبذة تاريخية » سنة ١٩٠٧ في ٣٥٧ صفحة بقطع ربع .

الشيخ ناصيف اليازجي

١٨٠٠ - ١٨٧١

مضى من قد علا علماً وشعرًا ... مقاماً لم يصل أحد اليه

فطاب كذا كرو ناصيف أرّخ ... ختاماً رحمة الله عليه

١٨٧١ (ابراهيم بطرس كرامه)

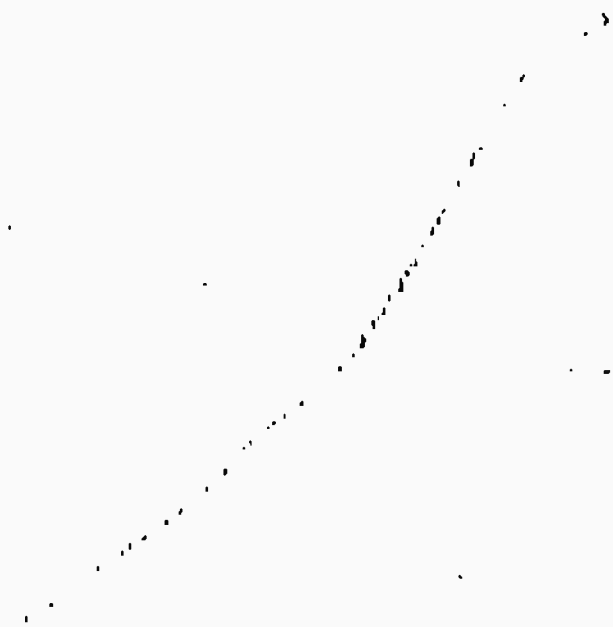

كلهان تغزله وتصبح راحلا ويقول عدك فيه من لا يعلم
فاحذر من الأنثى ولا تركن لها ولو أنها قالت ، انا هي مريم

وقال غيره في العلم :

سمتُ يوماً مثلاً سائرا فكنتُ بالشعر له ناظما
لا خيرَ في المرء اذا لم يكن لا طالباً علماً ولا عالما

فأشعار لبعضهم متفرّقة ، كصفيّ الدين الحلّيّ ، والحريريّ ، ويزيد بن معاوية ، الى ص٣١٢ ، فتخميس قصيدة الفارضي :

زدني بفرط الحبّ فيك تحيُّرا وارحم حشًا بلظى هواك تسعّرا [1]

بدون ذكر اسم المخمّس ، فتخميس القصيدة التي بدؤها :

ألا يا ايلُ هل لك من صباحِ وهل لسير نجمك من براحِ

ص ٣١٩ ، فقصيدة زجلٍ اوّلها :

في بحار الحسن بحبوبي سبحْ ونلالا بلبس اثواب الجمال

فزجليّة لميخائيل بن عبّود البحري ، يرثي بها الراهب الخوري يواكيم ، فزجلية ايضاً في فائدة العلم ونقص الجهل ، فأخرى في مدح القربان الاقدس ، فقصيدة خمريّة ص٣٢٨ ، في ثلاثة عشر بيتاً ، مطلعها :

قُمْ اختطفها لانّ السر يختطفُ صهباء يقدحُ منها المزْ والشرف

فقصائد للفارضي ايضاً ، « فقصائد تُدعى بعشرات الفازازي المغربي منظومة على حروف المعجم بحركات الطرفين لا نظير لها » ، تبتدئ في صفحة ٣٣٢ ، وتنتهي في ص٣٤٦ ، فخمريّة فتح الله بن الخناصر في ثلاثة وعشرين بيتاً ، بدؤها :

سلبوا الغصونَ معاطفاً وقدودا وتناسوا وردَ الرياضِ خدودا

فقصيدة لشاكر الحلبي يمدح بها الشيخ عبد الغني النابلسي . وقد صدّرها بهذا البيت :

من لي بكوكب عرفانٍ وبدر وفا بسعدِ شرفٌ قد جاوز الشرفا

---

١) قد وقفنا على تخميس عدّة شعراء لهذه القصيدة ، ونحن قد خمّسناها اذ كنا ندرس المعاني والبيان ، ونالت استحسان استاذنا العلّامة الاب نسة الله ابو ناضر (شاكر ابو ناضر قبلاً) .

ومطلعها :

آيات حبّ جبيّ الحسن تاليها ترهو وغنم الهنا بالخد تاليها

وتنتهي في صفحة ٣٥٣[1] ، فقصائد ايضاً للفارضي الى ص٣٧٦ ، فقصيدة للشيخ عبد الغني النابلسي يمدح بها نفسه ، أوّلها :

وحبودي جلّ عن جسمي وعن روحي وعن عقلي

وجواب الشيخ احمد بن الحرّ المتوالي (الشيمي) عليها بقصيدة[2]، فقصائد أخرى للفارضي الى ص٣٩٨ ، فقصائد عديدة متتابعة للشيخ ناصيف اليازجي ، منها مطبوعة ومنها غير معروفة سننشرها . وأولى قصائده في هذا المخطوط ، قصيدته في الدولة المصريّة ، وهي معنونة هكذا :

« قصيدة للشيخ ناصيف اليازجي على الدولة المصرية » مطلعها :

يا فاتحَ القطرين انت محمّدُ هل دون فتحك في البلاد مسدَّدُ

وتبتدئ قصائد وتواريخ الشيخ ناصيف في صفحة ٣٩٩ ، وتنتهي في ص ٤٩٨ الخ.. وفي اواخر هذا المخطوط نبذة من اشعار عنترة العبسيّ بخطّ مختلف من صفحة ٥٠٠ الى ٥٤٨ . وان كثيراً من اشعار هذا الكتاب قد افسدها الناسخ لجهله ، فاختلّ وزنها .

٥

وفي صفحة ٤٧٦ من هذا المخطوط ، رسالة نثرية شعريّة ، للشيخ ناصيف اليازجي ، بعث بها الى صديقه الشاعر نصرالله الطرابلسي في مصر ، جواباً له على رسالته اليه . وهي معنونة هكذا :

« ولهُ (للشيخ ناصيف) رسالة بعث بها الى المعلّم نصرالله الطرابلسي الحلبي الى مصر القاهرة »

واليكَ نصّ هذه الرسالة بحرفه الواحد :

---

١) عليك بها في تاريخ الامير حيدر الشهابي ، القسم الاول ص ٢٤

٢) راجعها في تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي « لبنان في عهد الامراء الشهابيين » في حوادث سنة ١٧٢٣ ، ص ١٨، القسم الاول ، طبعة اسد رستم وفؤاد افرام البستاني . المطبعة الكاثوليكية – بيروت ، ١٩٣٣ . وطالع مقال فؤاد افرام البستاني : « الشيخ عبد الغني النابلسي والشيخ احمد الحرّ » (المشرق ٤٥ [١٩٥١]: ٧١)

رسالة للشيخ ناصيف اليازجي بعث بها الى المعلم نصر الله الطرابلسي الحلبي

فتح الله لك ، يا شقيق الروح بالحسنى ، وختم لمحبك بالقربى[1] .

فقد بلغ الشوق الأمد ، وغلب على الكبد الكمد ، ولعمري ان شكوى المحبّ المهجور، لعجمة تُوسوس في الصدور . وكيف استيفاء ما لا يزال كل يوم في مزيد ، ويردف مفردات العتيق[2] بجُمَل الجديد . فوأبيك ما كتبتُ مما مضى سطرا ، الا اتى الحال بمثله شَغفاً ووتْرا .

ثم ان لمن اعجب الغرائب ، وأغرب العجائب ، غيابك في شخص حاضر، وحضورك في شخص غائب . تُقرّبك الاشواق ، وتنأى بك الآفاق ، فأنت اقرب من حبل الوريد الى النُهى ، وأبعد عن العين من السُهى . ولله درُّ القائل :

يا بعيد الدار موصو ل لا بقلبي ولساني
طالما أبعدك الدهر م فأدنتك الأماني

هذا ولم يزل الضمير متصلاً بأفعال الشك واليقين بين الاماني والذكرى ، تقلّبه عوامل الوجد والحنين ولا يجد وقاية ولا ستراً ، لا ينصرف عن الصبابة والغُلل[3] ، وكيف وقد اطبق عليه لفيفٌ مقرونٌ من البَلّ ، يستطرد من شكوى ثنائك ، الى شكر أياديك ، ويستتبع ذكرَ ألطافك بتنيّ ائتلافك . فهو بين الخبر والانشاء ، كالنصب بين الافعال والاسماء ، وتردُّد ذكرك فيه كالمعنى في الكلام ، او الارواح في الاجسام .

ثمّ ان ثمّ لقلباً انْ هو الا نقطةٌ في مركز الاشجان ، تدور بسه خطوط ممتدة تستغرق الزوايا والاركان . قد كأسه موسى القطيعة والفراق ، ولا بدعَ فهو ربُّ البلابل والاشواق ، المتجلّى على طور الصبابة بالإحراق والإيراق ، وأذابت ما كان من جوامده البارده ، حرارة الصُعَداء[4] الصاعده . وناهيك ما

١) بديع . (في الاصل) . يبين ان الشيخ ناصيف اليازجي ، قد علّق تناسيب بعض كلمات رددت في رسالته هذه وفي قصائده المدوّنة في المخطوط الذي نحن في صدده ، فنقلها الناسخ بالحبر الاحمر على الهامش وقد اشرنا اليها بكلمة « في الاصل » .
٢) غير (في الاصل) .
٣) الغُلّة : العطش الشديد ج غُلَل .
٤) الصُعَداء : التنفس الطويل من همّ او تعب .

هنالك من الشأن المغني خبره عن العيان ، وتقليده عن البرهان ، وليت شعري كيف يكون قلب صبٍّ أتلفه الهجر ، فكان احسن ما تناوله الصبر .

تقول لي كيف اصبحت . كيف يُصبح مثلي وقد ساءت به العَشرُ المقولات ، وخالفت نتائجه المقدّمات ، فله في كل قياس انعكاس ، وفي كل قضيّة خطيّة . اذا ذكر العصر الذي سلف ، كاد يتميّز من الغيظ والاسف . بكاؤه معقّد الازار ، ومنامه طَلَلٌ في وبار ، وسلوته في قبضة الجبّار ، فكأنه القمر ولكن في السرار . حَتَلٌ قد وثب عليه أسد ، فهل له من جَلَد ، قد حالت سعودُه نحوسا ، وخرج شكل نصره الكنيسا[1] ، طالما قام في الليل اذا سجا ، يرصد نجم الدجا ، وكأنما هبّ الصبا ، حنّ لها وصبا . يجد راحة الارواح ، في مجانبة الراح ، ويرى لذّة العشّاق بالسهاد ، اذا طاب الانفراد للإنشاد . فكأن قوافي الابيات ، أغاريد النغمات ، وفواصل الفِقَر ، ضَرَبات الوتر .

ومما أنشد قوله :

دموعي ، أقرَّ اللهُ عينك ، حرَّاء ... كأن جفوني وهيَ تنبع رمضاء[2]
فللهِ ماءٌ لا يُخامِرُهُ اللظى ... وفي نارٌ لا يُبرّدُها الماء
أشوقُ الى تلك الليالي وذكرها ... على انهُ للقلبِ ، واعجبًا ، داء
وأصحبُ أرواح الغزالي تحيّتي ... ونوقُ السرى عنها طلائحُ أنضاء[3]
اذا لاح برقُ السفحِ أطفأ ناظري ... فواعجبًا للنور بالنور إطفاء
وأعجبُ ان يأتي رسولا سلامًا ... وليس الى ردِّ التحيّةِ إصغاء
هو السفحُ اذ يُدعى فلا عَجَبٌ إذنْ ... اذا سفحتْ لي عَبْرةٌ فيهِ وطفاء
وأعجبُ من قلبي كثيرًا على الهوى ... ومولاهُ نصرُ اللهِ والبيدُ أعداء
أيا هاجرًا لسنا نرى لك صورةً ... فأدنى الينا منك هذي الثريّا
أعيذك مما بي وأعلمُ أنّهُ ... لحبٍّ وما ظني بحبّك خطّاء
شكرتُهُ اللقا ، وهو المحبّب فتنتي ... وقد كان لي شكرٌ عليهِ وإثناء
فلو طمتُ نفسي قلتُ يا ليتَ لم يكن ... فلولاهُ لم تعلقْ بنفسيَ أهواء
بكيتُ فخافت مقلتي طائلَ العمى ... وللدمع فيها طاعةٌ ثمَّ عياء

---

١) كذا وردت هذه العبارة في الاصل الذي نسخنا عنهُ .
٢) ارض حارّة (في الاصل) .
٣) نَيِّبة مهزولة (في الاصل) .

ترادفَ قطرُ الدمع منها فوالياً ... توالت ولكنْ لم يبِنَّ إبطاءُ
كَسَتْ وحتي ثوبَ أحمرارٍ تعمدتْ ... لأنَّ ثيابَ الحزن لا شكَّ سوداءُ
ولا تحسب المرجانَ دمعي فإنهُ ... لآلي ثناءٍ عنك في القلبِ بيضاءُ
حبستُ في عن نثرها فتخاذلتْ ... الى مقلتي فاستنفدت وهيَ حمراءُ
أجِلْ نظرًا في حال دمعي وقلْ لهُ ... سلامٌ ولا بَرْدٌ وفي النار أحشاءُ
ولا تفتخرْ عُجبًا بلفظك واندُ ... فكلُّها غالٍ متى فضَّ وشاءُ
يقولونَ انَّ الشوق يُسلي على المدى ... فقلتُ على الملوم جاءوا فما ساءوا
يزيدك طولُ الدهر يا شوقُ كثرةً ... كأنَّ الذي يأتي به لكَ أجزاءُ

أيا صاحبًا من أجلِ صحبتهِ الضنى ... وقد نلدُ الجسم السقيمَ أصحَّاءُ
هجرتَ ، ولكنْ لا ملالاً ، ولم تزُرْ ... وللشوق في طيِّ الترائبِ هيجاءُ
ولكنَّ ذلَّ الدهرِ من بعدِ يلتبي ... قد اعتلَّ منهُ اللامُ والميمُ والفاءُ

اليكَ كما شاءَ الزمانُ رسالةٌ ... بها مهجةٌ مشبوبةٌ ، ليس إنشاءُ
تكاد تلوحُ النارُ - منها لأنها ... هيَ ابنةُ قلبٍ دونهُ النارُ رياءُ
فلو لم يُثقلها سلامي وأدمعي ... لطارَ بها شوقٌ اليكَ وإغراءُ
ولولا التقائي غير طيفكَ عندما ... كتبتُ لأسلتها من الشوقِ صمداءُ
يزعمُ ان تُحدى الرسائلُ بيننا ... وما بيننا إلَّا شهابٌ وأنحاءُ
لعارٌ على الشاقِ ان يُذكر النوى ... فتُربُ المسى وصلٌ وليس أحبَّاءُ
وما بيَ ومنْ الشوقِ لكنْ موانعٌ ... يصحُّ اشتغالاً من حرامنَّ إلغاءُ
اذا لمتُ أحشائي بذنبي تقولُ لي ... أموتُ وفي قلبي من العذرِ أشياءُ
أسفتُ ولم أترك جمالاً وهكذا ... على قدرِ المفقودِ تطرقُ أسواءُ
اذا لم يزِدني البعدُ عنك فما انا ... بمن ساءهُ بؤسٌ وسرَّتهُ نعماءُ

وقالوا تصبَّرْ وأسلُ ، قلتُ لهم ، نعمْ ... سأسلو ولكنْ بالنظيرِ اذا جاءوا
لكلٍّ عليها مستحيلٌ وإنما ... لنا ولهمْ خلٌّ وفيٌّ وعنقاءُ
تقولُ نساءُ الحيِّ ما بكَ هل ترى ... هوًى أمْ جنونٌ ، قلتُ ، لا ثمَّ إلغاءُ
أترَهُ ما بي أنْ يُسمَّى بذا فقد ... تُريبُ كما بالقومِ متكنَّ أسماءُ

حبيبيَ مَن يَشفي السقيمَ حديثُهُ ... أجلْ ، بل غريبي ، والروايةُ عجماءُ

ومَن ضلَّ عن تنبيهِ مَن أرادَهُ ... فتنبيهُهُ أنْ لا يُشبَّ رواءُ
سكرتُ بهِ يومًا وما زلتُ لاكمًا ... يُرادفُ سكرًا من طلاكنَّ إصحاءُ
ولا بدعَ اذ ما يقصرُ الرجلَ مشربٌ[1] ... ولكنَّ لي من عاصرِ الفكرِ صهباءُ
بنفسي وإنْ لم تأتِ كفوًا لبالبًا ... قصرنَ وطالت بعدها بيَ أدواءُ
سوداءُ من طيبٍ وريحانةٌ جا ... تُسمَّى سوادٌ باسمها وسوباءُ
ظفرتُ بها حينًا فولَّت فلم تَعُدْ ... فما هيَ إلَّا في الخيامِ إحياءُ
اذا حضرتني صورةٌ عند ذكرها ... تُمثَّلُ في غيوبتي كيف إغفاءُ
وفي جانبِ الأيسارِ وادٍ عفيقُهُ ... دموعي وذكراكِ النضيرةُ جرعاءُ
كأنيَ في طُرقَيهِ نجمٌ وكلُّ ما ... سوى ذكرِ أيامِ اللقا في فيَ راءُ
اذا مالت الأغصانُ ملتُ فكلُّنا ... بهِ للهوى الجاني هياجٌ فإنَّماءُ
أبيتُ بهِ أرعى النجومَ وتستقي ... دموعي ولي نوحٌ طويلٌ وضوضاءُ
فلولا نواحي ما بكتْ فيهِ مزنةٌ ... ولولا بُكائي لم تَنُحْ فيهِ ورقاءُ
لقد تقلوا أنَّ العيونَ سواحرٌ ... وما هي إلَّا أنفسٌ ليس أعضاءُ
وليس سوى الأنفاسِ في الناسِ مُسكرًا ... فدعْ عنكَ دعوى مَن يقولُ المُحيَّاءُ

تباركَ مَن انشاكَ من نسلِ آدمٍ ... وآدمُ بعضُ الذاتِ منكَ وحوَّاءُ
يدلُّ بما يجري سواكَ مواهبًا ... وانتَ لِما تحوي دلالٌ وخيلاءُ
تُصرِّحُ عنكَ المكرماتُ بمرَّةً ... اذا كانَ منها غيرُ غيرِكَ إيماءُ
ويشهدُ نظمُ الشعرِ أنَّكَ ربُّهُ ... بمصرٍ ولو قيلَ الحجازُ وعربَاءُ
لئن نشزَتْ عونُ المعاني عن السوى ... فيا طالما طاعتكَ منهنَّ عذراءُ
ولا بدعَ ان جاءتكَ تنقادُ رغبةً ... وكيفكَ ياقوتٌ ولفظُكَ لألاءُ
متى جالَ في طرسٍ براعُكَ جاءنا ... ببدرٍ أفادتهُ الهدايةَ ظلماءُ
وربَّ سوادٍ هان لولاه أبيضٌ ... كما جاءَ في الأحداقِ أسودُ وضَّاءُ
وعندكَ في علمِ اللغاتِ إحاطةٌ ... كأنَّ الذي يلفاكَ منهنَّ إيحاءُ
فلو كنتَ بينَ القومِ في يومِ بابلٍ ... لَما أشكلت في ألسُنِ القومِ عجماءُ
سقى حَلَبًا صوبُ الحيا بكَ باكرًا ... وما هيَ إلَّا روضةٌ بكَ غنَّاءُ
ولا بدعَ أنْ تُهدى المحاسنُ منكما ... فأنتَ شهابٌ ثاقبٌ وديَ شهباءُ

هذا وأنا أترجّى إغضاء البصيرة السليمة ، وأتوقّع صفح الرويّة المستقيمة ،

---

١) كذا في النسخة التي نقلنا عنها .

عما فرط بها من العيوب ، وأفرطتُ من الذنوب ، غير قائل : رُبَّ عَثْمٍ أقرُّ للعين ، فارجعي يُخْنِي حُنين . على أنها وان كانت معلّقة ابن حُجَير ، او من حوليّات زُهَير ، لم تقف لديك الا موقف الخَجِل ، او تجري على ما بها من العلل . قد لَفَقْتُها[1] وانا مطاق العنان ، اتردّد بين كثير من المكان ، وقليل من الزمان .

يوماً بِجَزْوَى ويوماً بالعَقيق وبالـ ـمُذَيْنِبِ يوماً ويوماً بالحُلَيْصاء

يتنازعني من الاشتغال فريقٌ فريق ، فاذا ألغي الاعمال تعيّن التعليق . فأنا ذو فؤادٍ مقيَّد ، وشوقٍ مجرَّد ، وقلقٍ متدارك ، وأرقٍ متواتر ، وقلبٍ مشطور ، وجسمٍ منهوك ، ونفَسٍ سريع ، ونوحٍ طويل . طالما قطعتُ معارف البيد ، ووصلتُ المتقارب بالمديد[2] ، فكان شخصك نُصبَ عينيَّ ، حاكماً لي وعليَّ ، فغرضي الولاء ، وشَرْطي الوفاء . وقد وهبتُ عيني الدموع ، وحجبتُ عنها الهجوع ، فقد كدت أذوبُ حَجْلاً ، او اقضي نَحْباً . لم أزل أكفكفُ عبرتها وهي تبين ، فطيبا البينة واليمين ، وأتقلّب هائماً بين السحر والاصيل ، والله خير الشاهد والوكيل .

قد ضربتُ عروضها في صفائح البيضاء ، لا البيداء.[3] ومددتُ أسبابها بيد قريحتي الشلاء ، فجاءت وأبياتها تكاد تمور من الهيبة والحياء ، حتى اذا كانت على جناح السفر قائلة يا لَتَيْها ، انتفض الخَبَرُ بالخَبَر انك في مصر القاهرة . فوَأيمُ الله انَّ مثلك مَن كان تقلّبه في البلاد ، تبصرةً وذكرى للعباد . وأخرك الى من يُدعى اليه طلّاع الثنايا ، وتُلقى اليه مقاليد الوضع والخَلْع في القضايا . فلقد أحصيتَ العلوم بين الخواتم والفواتح ، وظفرتَ منها بكل سانح وبارح ، واعتصمتَ بتراعاتها فكرًا عن الخطإ ، فكنتَ تجري على صراط مستقيم ، وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

---

١) من لَفَقَ الثوبَ لفقًا : ضمَّ شقَّةً منه الى أخرى فخاطها .

٢) بحران من أبحُر الشعر .

٣) يُقال : أتيتُه في بيضاء الفيظ ، اي في صميمه . والبيداء : الفلاة .

ولعمري اني لستُ إلا على جانب الفضول ، بركوبي متن هذه الفصول . فأنا كمن أطعمه الغرور ، بتناول الشعر العبور .

وهيهاتِ هيهاتُ[1] العقيق ومَن بِهِ وهيهاتِ خلٌّ بالعقيقِ نُواصِلُهْ

وكيف تُحصى او تُحصر بالعدّ والحدّ ، صفاتٌ من جَمْعَ الفضائل قائمةً في جوهر شخصه الفرد ، فما أنا إلا كاتبٌ على صفحات الماء ، او حاسبٌ طوالع السماء . بَيْد ان لمّا يتعلّق بالإعراب والاشكال ، ان لهجتُ بما بي على صعودك سلّم الكمال ، فكان ذلك كما يقال للآل يا زلال ، وللعُرْجون[2] يا هلال ، فأطرقتُ خجلًا لإجراءي بناديك ذكرًا ، وتذكرتُ ما سبق لي من ابياتٍ شعرًا .

أخجلتني فوجمتُ حين مدحتني فكأنّما ذاك المديح هجاء
أنا قطرةٌ من فيض بحرك زدتني ماء فكاد يفيضُ مني الماء

ولكنّ صحّة المودّة تستر السجيّة العليلة ، فعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة[3] . ولله درّك ما أجلّ فضائلك ، وأرقّ شمائلك ، وأصحّ وِدادك ، وأبرّ فؤادك .

فلو صوّرتَ نفسك لم تزدها على ما فيكَ من كَرَمِ الطباعِ

ولعمري ان مثل هذا الباب ، لمّا يتساوى فيه الايجاز والإطناب . ولُبٌّ وصلٍ تحسُن في حواشيه الفواصل ، فعند التناهي يقصر المتطاول . غير اني ما أوردتُ من هذه الكلمات ، على قصوري في تأدية العبارات ، وضعفي في تأليف المعربات ، لا لاستيفا معانيها ووجوه صفاتك ، وبيان أعراضها عن جوهر ذاتك ، بل جملتها حديثًا مُسندًا الى الشوق والغرام ، ومجازًا مرسلًا الى نشر حقائق العهود في طيّ الفؤاد والسلام .

---

١) في الاصل (هيهاتِ) وهي تحريف من الناسخ على ما يظهر لنا ، لان الوزن لا يستقيم مع هيهات .

٢) العُرْجون : اصل العِذْق الذي يعوجّ ويبقى على النخل يابسًا بعد ان تُقطع عنه الشماريخ ج عَراجين .

٣) هو صدر بيتٍ من الشعر :

وعين الرضا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ كما أنّ عينَ السخطِ تُبدي المساويا

لهجو نك ثم الهجو ثم الهجو

قصيدتان في الهجاء من نظم الشيخ ناصيف اليازجي

ان اوّل من ترجم الشيخ ناصيف اليازجي على ما نعلم ، هو الطبيب سليم دياب الطرابلسي ، تلميذه وصديقه ونديمه وطبيبه في مرضه الاخير[1]. ومما رواه دياب عنه انه « لم يُسمع له كلمة بذيئة قط في حديث ولا كتابة ، ولا هجا احدًا ولو هُجي ، ولا طعَن في عرض أحد[2]... » وكل من كتب عن الشيخ ناصيف رجع الى ترجمة دياب اولًا واقتبس منها ونقل عنها هذا الخبر الذي اجمع عليه جميع مؤرخي حياة اليازجي[3]، حتى ان الشيخ فارس الشدياق صاحب جريدة « الجوائب » في الاستانة ومحرّرها ، ذكر هذه المبرّة في رثائه الشيخ ناصيف فقال :

ما كان يهجو ولا يُهجى ولا عَجِبَت ذكا قريحتهِ أحلاكُ حدثانِ
كانت أسرَّتُهُ عنوانَ نيّتهِ على المصافاة في سرٍّ واعلانِ[4]

وصدَّق على كلام الشدياق بهذا المعنى الشيخ ابرهيم اليازجي في آخر ردّه عليه[5]. غير انهم ذكروا للشيخ ناصيف بيتين في الهجو لا غير ، قالهما في بخيل وهما :

---

١) راجع مجلّة «الجنان» السنة ١٨٧١ ، لمنشئها المعلّم بطرس البستاني ، صفحة ١٥٠ و١٩٠

٢) الصفحة ١٩٥ منها .

٣) من الغريب ان تُصدر مجلّة « النفائس » البيروتية ، لصاحبها انيس عبد الخوري ، عددًا خاصًا في ٣٢ صفحة عن اليازجيين ، بمناسبة نقل رُفات الشيخ ابرهيم اليازجي من مصر الى لبنان سنة ١٩١٢ ، محبّرًا بقلم كامل حمّه ، وان يضع الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف كتابين مختصرين ، الاول في تاريخ المشايخ اليازجيين في ١٤٠ صفحة ، والثاني في تاريخ اصهارهم وبناتهم واسباطهم في ١٦٧ صفحة بقطع ثمن ، مطبوعين بالمطبعة المخلّصية — صيدا ، لبنان — سنة ١٩٦٥ ، وان يجمع ميخائيل رحمه دواوين الشيخ ناصيف الثلاثة ، في ديوان واحد ويطبعهُ بنفقتهِ بالمطبعة الشرقية ، الحدث — لبنان — ١٩٠٤ ، مصدّرًا بترجمة الشيخ ناصيف بقلم سبطهِ امين الحدّاد ، ولا يأتي واحد من هؤلاء المترجمين الشيخَ اليازجي الكبير ، على ذكر ترجمة دياب المومأ اليها .

٤) راجع جريدة «الجوائب» ، ١٠ ايار سنة ١٨٧١ ، العدد ٥١٩ ، وكتابنا «الشدياق واليازجي» ص ٦٥ ، مطبعة المرسلين اللبنانيين — جونية (لبنان) سنة ١٩٥٠ ، في ٣٥٢ صفحة بقطع كبير .

٥) مجلّة «الجنان» السنة ١٨٧١ ، الصفحة ٨٤٢ ، وكتاب «الشدياق واليازجي» ص ١٣٩

قد قال قومٌ إنَّ حبزكَ مالحٌ والبعضُ أثبت بالحلاوة حكمهُ
كذبَ الجميعُ بزعمهم في طعمهِ مَن ذاقهُ يوماً ليعرفَ طعمهُ

كنا نقرأ ونسمع ان الشيخ ناصيف لم يهجُ أحدًا في شعره ، ونحن غير مصدّقين ان شاعرًا مثله مطبوعاً جوّاد القريحة يقرض الشعر في ظروف شتّى ولم يخطر له مرّة نظم شعر في الهجو ، وهو يعيش بين الناس ويخالطهم ويعاشرهم ، والشاعر كسائر الناس يحسّ ويتأثر بما يرى ويسمع ما لا يستطيبه ذوقه وينفر منه طبعهُ ، لا بل ان الشعور فيه بالغ حدّ الارهاف ، فلا بدَّ من ان تستفزّه يوماً واقعةُ حالٍ او نفرةٌ من أحد فيتأفف ويتبرّم ، وتضطره الى ارسال كلمة ملام او هجو نثرًا او شعرًا لانه لا يستطيع ان يصدَّ تيّار شعوره عن الانطلاق والانفلات عندما يثور ثائره ويفور فائره .

وهذا القس جبرائيل فرحات (المطران جرمانس) بالرغم من تزهّده وعلو كعبه في العلم والفضيلة ، نراه يعجز عن اخفاء صوت شاعريته وكبح ميله عندما يرى ما يرى من تعنيف القس جبرائيل حوًّا (المطران جبرائيل) ابن مدينته ورهبانيته ومخادعته ومماكسته له في بعض شؤون تتعلق بخير الرهبانية ، عندما اجتمع به في دير مار بطرس ومرجلين برومة العظمى ، فقال فيه سبعة ابيات من الشعر هجاه بها ناسباً اليه المخادعة والمصانعة والمظاهرة بفعل الخير . وهذا اوّلها :

بمرجلينَ صادفنا فسالا تُذكّرنا فسالَ المُفترينا
بانسانٍ أرانا الخير لفظاً بلا معنىً فخلناهُ مُبينا[1]

وما برحنا غير مصدّقين انَّ الشيخ ناصيف اليازجي لم يهجُ احدًا في حياته ، حتى وقفنا له على قصيدتين خطّيتين في الهجو مجهولتين غير منشورتين في اجزاء ديوانه الثلاثة : النبذة الاولى من شعره ، ونفحة الريحان ، وثالث القمرين ، وهما لا تقدحان في عِرض الشيخ ولا تنقصان من كرامة منزلته . الاولى قالها في رجلٍ رغيبِ أكول ، وهي مدوّنة في الصفحة ٤٨٨ من مخطوط دير الشير ، تحت رقم ١٣٣ عدد ٤٦ ، الذي أتينا على وصفه . والثانية ، وقد سُئل نظمها ،

١) قولهُ : أرانا الخير لفظًا الخ ، كناية عن انهُ مخادع يمدحُ الخيرَ ويجتنبهُ ، ويذمُّ الشرَّ ويرتكبهُ (ديوان المطران ص ٤٤٠)

في احد المغفلين المتعرضين لنظم الشعر ، مرقومة في صفحة ٤٥٢ من المخطوط المذكور .

واليك نص القصيدتين بعنوانيهما :

القصيدة الاولى

« وقال (الشيخ ناصيف اليازجي) في رجل » :

سبيلك أنّهُ أهنا سبيلِ ... اذا استغنيتَ عن ذكرِ جميلِ
أمرُّ القومِ أحمقُهم فؤادًا ... وأشقى الناسِ أربابَ العقولِ[1]
وما انتَ الجهول اذنْ ولكنْ ... جهولٌ مَن تمسَّك بالجهولِ
اذا طاب الفتى بالجهل نفسًا ... فأهونُ ما يُرى وجهَ المذولِ
متى رمتَ الكرامةَ من لئيمٍ ... فإنّكَ طامعٌ بالمستحيلِ
ومَن ركب الحمارَ فجال فيهِ ... تظلّم فوق فرسانِ الخيولِ
نظمتُ بكَ القريضَ وبي اعتذارٌ ... الى الرحمان من شرِّ الفضولِ
فلا هجوًا ولا نصحًا ولكنْ ... أردتُ بذاك ان أشفي غليلي
كأنك صخرةٌ في البيت ليست ... سوى للضيقِ والخِلِّ الثقيلِ
وليتك لو حكيتَ الصخرَ صومًا ... فلستَ سوى شروبٍ أو أكولِ
بلادةُ أثيَبٍ في جهلِ طفلٍ ... ورقّةُ أرنبٍ في أكلِ غُولِ
متى وُضع الطعامُ لديك شِئنا ... هجوم الوحشِ في جَدَبِ الفتيلِ
تُلاطم كفُّك الأخرى وتُدمي ... ثناياك الأصابع كالنُصولِ
وتسمع منكَ دَمْدَمَةً ونَفْخًا ... كنفخِ المرِّ أو نَخطِ الفُحُولِ
ترى الجفَناتِ[2] حولك مُنشآتٍ ... قد استغنينَ عن دَلْكِ[3] الفُسُولِ
وللرُغفانِ[4] بين يديك صوتٌ ... كصفقِ الريحِ في وَرَقِ النخيلِ
فما ينجو طعامٌ منك حتى ... تظنَّ حشاك من بعض الطبُولِ

---

١) ان معنى هذا البيت مُقتبس من قول المتنبي :
ذو العقل يشقى في النعيم بعقلهِ ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

٢) الجفنة : القصعة الكبيرة ج جِفان وجِفانٌ وجَفنات .

٣) دَلَكَ دَلْكًا الشيءَ : فَرَكَهُ ودَعْكَهُ .

٤) الرغيف : الكتلة من العجين . ما رُقّق وخُبز منهُ ج أرغفَة ورُغف ورُغفان . ويظهر ان الخبز في عهد الشيخ ناصيف كان يابسًا حتى يُسمع لكسرهِ في يد مَنجوده ، صوتٌ كصفق الريح . . .

ولا تحسبي رعيفَ منك إلاّ اذا كتبوا به علمَ الأصولِ[1]

○

بحقك لا تؤاخذني لأني مجونك ليس عن أمرٍ قليلِ
صفاتُك تدهش الألبابُ منها وأنت على النباهة في المحولِ
لقد عالجتُ سقمك قبل هذا فزاد علاجُ سقمك في النحولِ
اذا صار الدوا داء علينا بأنّ الحبَّ من نفسِ العليلِ
مجونُك ثمّ أهجو ثمّ أهجو الى أنْ تستقيمَ على السبيلِ
وما هذا بهجوك غير أني ذكرتُ به مقدّمةَ الفصولِ

القصيدة الثانية

«وسُئل (الشيخ ناصيف اليازجي) كلاماً في احد المتعرّضين لنظم الشعر فقال»:

خلِّ الكلامَ لأهلهِ يا قايلُ ودعِ اتّحالك فهو أمرٌ باطلُ
أتخوضُ ويكَ ولستَ أولَ جاهلٍ بحرًا، لقد أعياكَ منهُ الساحلُ
لو كان نظمُ الشعرِ مردَ كلامهِ عمَّ الخليقةَ فهو حكمٌ شاملُ
ومن العجائب ان يطاعنَ أعصمٌ[2] ويصولَ ما بين الفراوسِ راجلُ
قلّ قيلَ بالشعراء انّهم هُمُ الغاوون ليس يقولُ منهم فاعلُ[3]
قد يكذبون على العباد وأنتَ قد أكذبتَ نفسك حيثجئتَ تناضلُ
دعْ أيها الشعرورُ شعركَ أنّهُ أضحى لصيدِ مجاكَ وهو حبائلُ
لمّا رأينا أنّ شعرك ناقصٌ قلنا ولم نشكك بأنك فاضلُ
صيّرتهُ سبباً لمجوكَ لاحفاً فعلامَ يعتبُ من أجاب السائلُ
لو لم تبنْ أبياتهُ بين الورى ما قيل إنّك أحمقٌ أو جاهلُ

○

ولربَّ ديوانٍ نظمتَ كأنّما هو جبهةٌ فيها السهامُ قواتلُ
ضمّنتهُ فنَّ البديع فلو سوى جفناً ترقرقَ منهُ دمعٌ هاطلُ
وبحُ الهايلِ ودَيحُ ضَرْبِ عروضهِ فلقد نكسرُ والتفتهُ فواصلُ

---

١) عبارة عن . . . هنا كلمات قُطعت بمقراض تجليد هذا الكتاب .
٢) الأعصم : يابس اليد (في الاصل) .
٣) وردت في القرآن هذه الآية : والشعراء يتبعهم الغاوُنَ . الم ترَ انّهم في كلّ وادٍ يهيمون . وانّهم يقولون ما لا يفعلون (سورة الشعراء) .

نأتي بوافرهِ وكاملهِ[1] ولا ... بحا مفاعيل ولا متفاعلُ
أسمعتَ انَّ الشعر يُفهمُ أبحُرًا ... فطمعتَ أنَّك ، في اتساعٍ ، جاملُ
ليتَ أتاعك في ثباتِ وزنهِ ... خُلقَ القوافي وهيَ فيهِ تُغازلُ
وأصرتَ علمَ النحو لعبةَ عابثٍ ... فاذا بيدك وهو فيهِ هازلُ
لمّا وضعتَ عليهِ كفَّك ملغيًا ... سقطتْ عن الاعرابِ منهُ عواملُ
عيبٌ عليكَ وأنتَ أشيبُ لمّةً ... تُطلى عليك خديعةً وتُغازلُ
فأجبْ فؤادك، إنْ أتى لك شاهدًا ... بالنظم ، أنَّك كاذبٌ يا غافلُ
لا تحسبنَّ الشعرَ كأسَ مدامةٍ ... يهوي ، عليهِ بكفهِ ، المتناولُ
هو سيّدٌ لم يرضَ مثلك ؛ إنَّهُ ... عبدٌ ، بحضرتهِ الشريفةِ ، مائلُ

٥

عذرًا بحقّ بديعِ نظمك صحّةً ... وفتونهُ بشجونهِ تتفاعلُ
ما كنتُ بالهاجي سواك وانّما ... شيمي بايفاء الحقوق عوادلُ
واعلمْ بانَّ الشعر أصعبُ مركبٍ ... يُلفي اخاك بهِ المثارُ العاجلُ
كمُلتْ مناقبهُ وفيك نقائصٌ ... والنقصُ أكرهُ ما يراهُ الكاملُ

[للمقال صلة]

---

١) الوافر والكامل : بحران من أبحُر الشعر .

* أخبرنا الاب اغناطيوس سامين حرب الجبيليّ احد ابناء رهبانيتنا اللبنانيّة المارونيّة، البالغ من العمر الستة التامة والثمانين المتمتّع بصحة العقل والجسم ، نقلًا عن غيره . قال ما هو بمعناهُ : قصد الشيخ ناصيف اليازجي زيارة احد اصحابه في بيروت ، ولما بلغ قرب الدار رذّت الماء ، واذ قرع الباب استوقفهُ البوّاب ريثما يدخل على صاحب الدار ويستأذنهُ في دخول الشيخ الذي ظلّ منتظرًا خارجًا ، فتبلّلت ثيابهُ. واذ عرف صاحب الدار انّ الطارق هو الشيخ ناصيف صاح في خادمهِ قائلًا : ويحك ! هذا الشيخ ناصيف اليازجي عجّل فافتح لهُ . ولما دخل الشيخ وجلس ، سأل البوّاب : ما اسمك ؟ اجاب : اسمي بارد . قال الشيخ بديهًا :

يا باردٌ غلطوا بقطعةِ بائهٍ ... ما أنتَ إلّا باردٌ سوءٌ سَجِنْ
نبّأ لدارٍ أنتَ بوّابٌ لها ... كيف الذي يأتي اليها ينفرجْ